جوائز العيد بين الجهادين الأكبر والأصغر

الشيخ حسين كوراني

سيّدنا يا صاحب العصر والزّمان عليك صلوات الرّحمن، ما معنى العيد في غيابك، وجدُّك الإمام الصّادق عليه السلام يخاطبك قبل ولادتك فيقول: «**سيّدي غيبتُكَ نفتْ رُقادي**»!

طالتْ علينا ليالي الانتظار، فهل

يا ابن الزّكيّ لليل الانتظار غدُ؟!

***

ماذا يعني العيد، هل هو فرحٌ بالتّحلّل من قيود الصّوم، وابتهاجٌ باستئناف دورة الحياة العاديّة؟

وما قيمة ذلك إذا كان الباطن مظلماً مطروداً لم ينعم بالرّضى والقرب من المليك المقتدر؟...

العيد هو الفرحة بالطّاعة، والفوز بالرّضوان. إنّه يوم توزيع الجوائز الإلهيّة على ضيوف الرّحمن.

من كان صومه حقيقيّاً فجائزته التّقوى، ومن حافظ فيه على أوقات الصّلوات فجائزته استجابة الله تعالى دعاءه، ومن حسّن فيه خُلُقه استحقّ جوائز المرور على الصّراط، ومن أكرم فيه يتيماً استحقّ جائزة إكرام الله له يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحِمه وصله الله تعالى برحمته، ومن أكثر فيه من الاستغفار وطول السّجود استحقّ جائزة فكاك نفسه وحطّ الأوزار عن كاهله، ومن أكثر فيه الصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وآله وسلّم، استحقّ جائزة رجحان كفّته وثقل ميزانه يوم تخفّ الموازين.

ومن الجوائز في يوم العيد الحجّ المبرور الذي يغفَر معه الذّنب، وتكفّر السّيّئات، والتّوفيق للشّهادة في سبيل الله تعالى، كما أنّ من ألحّ فيه على التّوبة وسعى أن تكون صادقة، منّ الله تعالى عليه في يوم العيد بجائزة قبولها، وأكبر من ذلك أن يغفر الله ما سلف ويسدّد فيما يأتي، ومن أعظم جوائز يوم العيد استحقاق إخراج حبّ الدّنيا من القلب.

وأعظم منها أن يمنّ الله تعالى بحبّه، فيصبح القلب حرم الله عزّ وجلّ.

أهل هذه الجوائز وأمثالها هم أهل العيد، ومن عداهم المسيئون الذين إذا كُشِف لهم الغطاء شُغلوا بإساءتهم «عن تصفيق أيدٍ وتصفيق ثيابٍ وترجيل شعر...».

ليس الهدف أيّها الأعزّاء من التّركيز على هذا الجانب إدخال الحزن على النّاس في يوم عيدهم، وإنّما الهدف الحفاظ على التوازن، فلا يصحّ أبداً أن يُفهم العيد تحلّلاً من العبادة، كما لا يصحّ بطبيعة الحال أن تغلب الكآبة فيه، بل ينبغي أن يواجه المؤمن الناس بالبشاشة والبهجة، إلّا أنّه يظلّ حريصاً في باطنه على صون ما أنجزه طيلة ضيافة الله تعالى، فلا يضيّعه في الانجراف في تيّار المعاصي ويظلّ حريصاً من الشّياطين الذين طال تقييدهم، وهاهم اليوم قد فُكَّت أغلالهم، يبذلون قصارى جهدهم في الإغواء والتّزيين والتّلبيس، إلى حدّ أنّ بعضنا قد يخسر في يوم العيد كلّ ما حصل عليه طيلة شهر الله تعالى.... من أجل هذا التّوازن كان هذا التّركيز.

إنّ الحرص على التّناسب بين ما سلف وما نستأنف هو، إذاً، منشأ تأكيد أن لا يكون يوم العيد نشازاً لا يصل الماضي بالمستقبل، فإذا اجتاز الصّائم يوم العيد دون أن يصاب بنكسة في إيمانه ومراقبته لنفسه، كان أقدر على مواصلة ذلك في ما بعد.

وعندما نتأمّل في مستحبّات يوم العيد نجد أنها تركّز على صون ما أُنجز طيلة شهر رمضان المبارك وتعزيزه ليكون المخزون الإيمانيّ والشّعوريّ الذي يمكّن من مواصلة رحلة الحياة الشّاقّة بيُسر.

ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**زيّنوا أعيادكم بالتّكبير**».

ورُوي «**أنّه كان صلّى الله عليه وآله وسلّم يخرج في العيدين رافعاً صوته بالتّهليل والتّكبير، وأنّه كان يُكبّر يوم الفطر حين يخرج من بيته حتى يأتي المصلّى**».

يوم العيد، إذاً، يوم عبادة، يوم تكبير وتهليل، يوم تضرّع لنيل الجوائز القيّمة والفوز بالرّضوان، والتحلّي بمكارم الأخلاق... إنّها جوائز الجهاد الأكبر التي ننطلق بها في ساحات الجهاد الأصغر فنحمل هموم المسلمين والمستضعفين في الأرض بزخمٍ جديد وروحٍ تحنّ إلى الشّهادة، فطالما ردّدنا في ليالي شهر رمضان المبارك: «**وقتلاً في سبيلك فوفّق لنا**»...

(مناهل الرجاء – أعمال شهر رمضان، مختصَر)

معايدة المجاهدين في ساحات القتال

وأخيراً طرقنا باب شوال، دخلنا منزله، نتجوّل في أرجائه... قيل: شوال، شهرٌ شالت فيه الذنوب، وزالت، ببركة ضيافة الرحمن، وجوائز العيد.

أيها العزيز، إذا دعوتَ عزيزاً لضيافتك، هل ترضى أن يخرج من ساحة كرمك صفر اليدين خاليَ الوفاض. فكيف إذا كنت إنما دعوتَه لتكرمه، وتُجزل له العطاء.

وهَبْ أنك وجدت في تصرّفه معك خللاً، ألا تحرص على جبر هذا الخلل، وتغضّ الطرف عنه، عملاً بمبدإ حُسن الضيافة وأنت صاحب البيت؟

فكيف يا ترى بضيافة أكرم الأكرمين المطلق، الخالق الأرأف، والأرحم. حاشَ لله أن نخرج من ضيافته كما دخلنا، لا استحقاقاً منا، بل تفضّلاً منه وكرماً، وهو يعطي مَن سأله ومَن لم يسأله، بل يعطي مَن لم يعرفه تحنّناً منه ورحمة.

أيها العزيز، يحقّ لك أن تظنّ بأن حصيلتك من شهر رمضان، من ضيافة الرحمن، مميزة، وعيديّتك لا تضاهى، خاصةً إذا كنت بذلتَ جهدك ما استطعت.

للمؤمنين الذين ليسوا في ساحات الجهاد، أن يأملوا ويطمعوا، فكيف بك أنت وحبُّ الله تعالى للذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص، يضيف إلى أمَلِك آمالاً.

وتَواجُدك في ساحات الجهاد جديرٌ بتحصين صومك ليجعلَه الصوم الحقيقيّ، المنطلق من حصن الإرادة المستعصي على دوائر جذب الشيطان وشباكه من بهارج الدنيا.

حاشا كرم الكريم أن ينسلخ عنّا شهر رمضان، إلا وقد انسلخنا من ذنوبنا. بلى، حتى نحن أصحاب المعاصي، ولاشرط!... لم يُشرَّع الصوم إلا ليلحقَ المقصِّرون، وليبلغَ العباد المشاكسون الذين فاتتهم القافلة. وحاشا كرم الكريم أن يكون زادُك، أيها المجاهد، إلا خير الزاد.

(مقتطف من برنامج إذاعي موجّه للمجاهدين)

التداعيات الأخلاقية للإعلام المعاصر

فتنةُ المشاهدة*

محمود حيدر**

هل الميديا عالمٌ افتراضيّ كما قرّر المحدثون من أهل الاصطلاح، أم هي عالمٌ حقيقيّ يترجمُه نمطُ حياةٍ بالغ الكثافة والتعقيد؟..

ينطوي السؤال كما هو بيِّن على ضرب من التشكيك بصوابية التعريف. فالناظر في أفعال الميديا وآثارها والوقائع الناشئة منها، لا يلبث حتى يأخذه الذهول بعالمٍ مثقلٍ بالحقائق الواقعية.

لننظر إذاً، ماذا نرى؟..

لو كان لنا أن نعيِّن مقصداً للغاية التي من أجلها افتتحت الميديا زمنها المفارق، لانصرفنا إلى القول: إنّها الرغبة الجامحة بإغراق العالم بطوفان غير مسبوق من الأظلّة والأصوات والأصداء والصور والمعلومات. كما لو أنّ الآخذين بناصيتها أرادوا أن تفصحَ الحداثة الفائضة عمّا تبقى من أسرارها بعدما أعلنت عن نهاية التاريخ. فالليبرالية الجديدة، وقد فاضت عن نفسها حتى ضاق صدرها، لم تعد تقدر على الصبر طويلاً لتسوِّغ دعاويها وتعلن سيادتها على أربع جهات الأرض.

في مستهلّ القرن الجاري كشفت الميديا عن أعمق أسرار الحداثة، لَمَّا أضافت نظرية «القوة الليِّنة» إلى منهج التطويع القهري للغير على امتداد الأزمنة الاستعمارية المتعاقبة. وهي النظرية التي يجوز لنا أن نعبِّر عنها في عالم الميديا بـ«ثقافة الومضة». إذ مع هذه الثقافة التي ولدت على حين بغتة جرَّاء الدفَقِ الهائل للمعلومات، بات المواطن العالمي يشعر أنّ لا حيلة له سوى التماهي مع سيولها العارمة.

هذه الوضعية المستحدثة التي جيء بها إلينا على صهوة الميديا، سوف تدعونا إلى التعرُّف على الأصل الذي منه ولدت «ثقافة الومضة». لكن معرفة الأصل، تفترض العودة، ولو قليلاً، إلى التأسيس الأنطولوجي للخطاب الإعلامي الغربي.

الابتداءات الفعلية لهذا التأسيس جرت مع حداثة أقامت فلسفتها على اليقين بأنّ الإنسان يستطيع معرفة كل الأشياء في حد ذاتها؛ وأنّ العلم والتفكير العلمي قادران، من دون سواهما، أن يحدِّدا ما ينبغي علينا أن نقبله على أنه حقيقي.. وأنّ ما يتصل بالمعاني والقيم الروحانية، إنْ هي إلّا متغيّرات في كيمياء الدماغ التي تتفاعل مع مجموعة من القوانين الميكرو - بيولوجية المرتبطة بتطوّر الإنسان.

ولكن.. ما حدث في «المابعد» سيفتح الباب على إمكان تبديد هذا اليقين. يكاد يتسنى للحداثة أن تحشر إنسانها المعاصر في عالمه الأرضي وتدفعه مجدداً نحو الوثنية، حتى جاء من أهلها مَن يُخبِرُ عن استحالة هذا المدَّعى. جمعٌ من مفكري التنوير المتأخرين ذهبوا إلى القول: إنّ العقل المحض الذي يُعاد إنشاؤه في مواجهة الصعود المتجدّد للميتافيزيقا الدينية بات قاصراً عن تلبية مقتضيات الحضارة الحديثة. وكان أن ثَبُتَ بالتعقُّب التاريخي لمسار المعرفة أنّ هذه الأخيرة، ليست سوى سلسلة من الصياغات المجازية: من الشيء إلى الصورة الذهنية، ومن الصورة إلى الكلمة التي تعبِّر عن حالة الفرد النفسية، ومنها إلى الكلمة التي تفرضها الاصطلاحات الاجتماعية بزعم أنّها

* افتتاحية العدد الحادي عشر من فصلية «الاستغراب»، ربيع ٢٠١٨

** مفكّر وباحث في الفلسفة

الكلمة الصحيحة.. ثمّ عودة إلى البدء: من هذه الكلمة إلى الشيء الذي لا ندرك منه سوى الملامح التي تسهّل صياغتها المجازية في المعاجم المتوارثة.

* * *

لمّا استشعرت الحداثة بنسختها النيوليبرالية مأزقها الأصلي، أي البحث الشاقّ عن بَدْءٍ جديد، راحت تحثُّ السير نحو انعطافة تمنحها القدرة على ترميم صدوعها، وإعادة تشكيل العالم الجديد طبقاً لأغراضها. لقد وجدت في «العولمة» ضالّتها الكبرى لتعثر على هذه الانعطافة. ألقت بجميع أثقالها داخل شبكة عنكبوتية من الأنباء والمعلومات والصور والرموز، وحوَّلتها إلى منظومة للتحكّم والسيطرة. استعملت النيوليبرالية منظومتها المستحدثة بغلوّ صارخ، وراحت تزيل الستر عن الأصل الذي جاءت منه، ثم لترمي به في العراء. سوى أن الأثير اللامتناهي الذي أطلقته الحداثة الفائضة، من أجل أن تهيمن على العقول والمشاعر، سيكون له ارتدادات انقلابية على منبتها الأصلي. ظنَّت أنها بتوسيط الميديا تستطيع أن تبشِّر العالم كله بمشروعها الانقاذي. ثم انبرت تقنع البشرية بأنّ روح الغرب هي روح التاريخ الإنساني كله، وأنّ كلّ شيء في العالم الحديث بات رهن قِيَمِها وأحكامها.

* * *

حاصل التجربة التي لم تأخذ الكثير من الوقت، كان في جانب أساسي منه مخيِّباً للآمال. فلو حَسِبَت حكومات الحداثة ما ستؤول إليه أحوالها لحظة انفجار ثورة الاتصالات، لانعطفت عن مسارها واجْتَنَبَت سوء الخاتمة. ربما غفلت عمّا نبَّه إليه بعض نقّاد «الميتافيزيقا البتراء» وفي مقدمهم فريدريك نيتشه، من أنّه «بالمعرفة الكاملة بالأصل يزداد هذا الأصل تفاهة». ومرامُه في ذلك، أنّ الفكرة المؤسِّسة للتنوير أخذت تهبط إلى أدنى حدودها، وتفقد جاذبية احتوائها على السر لمّا أصبح أصلها معروفاً.

لنا هنا من فضاء التلفزة الفضائية المثال التالي:

من غوايات العالم الافتراضي وأضاليله، ذاك الذي يطلّ عليك من دون استئذان بعبارة «الخبر العاجل». وهذا النوع من المباغته الذي يملأ فضائيات العالم، وبجميع اللغات، يبدو باعثاً على سلوى المشاهدة ولو كان خطباً جللاً مثقلاً بالضحايا. حتى لقد غدت الكلمات المعدودات أسفل الشاشة أدنى إلى «طقس نفساني»، يتلقّفه المشاهدون عن ظهر قلب.

تلقاء هذا النوع المستحدث في عالم الإعلام الفضائي، يكاد كل شيء يصبح قابلاً للتصديق.

المرارة التي يُفصح عنها مثقّفون غربيّون حيال واقع الإعلام في مجتمعاتهم، مردُّها إلى استشعارهم أن الحضارة الغربية لا تحمل أيّ مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للتاريخ وللحياة، وتنحو بسرعة مذهلة نحو الاضمحلال الأخلاقي

ذهب جمعٌ من مفكّري التنوير المتأخّرين إلى أنّ العقل المحض الذي يُعاد إنشاؤه في مواجهة الصعود المتجدّد للميتافيزيقا الدينية بات قاصراً عن تلبية مقتضيات الحضارة الحديثة

والذي اصطُلح عليه بـ«الميديا» كوصف مكثّف للسيطرة الإعلامية، سوف يتحول في خلال فترة عجولة إلى «وحش أسطوري» يلقي بظلِّه الرهيب على كل مواطن يتوقّع نبأً ما، ينجيه ممّا هو فيه من هلَع.

ظاهرة «الخبر العاجل» - على وجه التعيُّن - لم تعد مجرد حالة عارضة. بل هي أمست مع تقادم الزمن وكثافته وسرعته، حالة «نفس – ثقافية» متأصّلة. فلو تحرّينا منشأ ولادتها وأسباب نموّها وتوسّعها، لتبيّن لنا بهتانها وبراءتها المزعومة. فإنها موصولة بالأغراض والأهواء والمصالح، وكذلك بغايات سياسية وإيديولوجية واضحة المعالم، في المجتمعات الأهلية، كما في العلاقات بين الدول.

ولئن قال قائل إنّ مهمة الخبر هي ملء المساحة المجهولة من مجريات الأحداث، ومن حقّ الجمهور التعرّف على ما لا يعلم، فقوله صحيح في المبدأ. لكن الصحيح أيضاً وأساساً يكمن في الكيفية المهنية والأخلاقية التي تقدم فيها المعلومات فضلاً عن النتائج المترتبة عليها.

ولكي لا يبقى القول في «الخبر العاجل» ضمن حدود الوصف، تحدونا المسؤولية إلى النظر إليه بوصفه وسيلة غير منزّهة عن الأغراض. فإنه على ضرورته في تغطية الأحداث، لا ينبغي أن يفارق القاعدة الكلية التي تحكم فلسفة الإعلام، وهي الحرية المقرونة بالمسؤولية. والمسؤولية هنا هي شأن معنوي وأخلاقي قبل أي شأن آخر.. فعلى أرض هذه المسؤولية يمكن إجراء الأحكام على أخلاقية، أو لا أخلاقية الخبر على أنحائه المختلفة. من هنا مسّت الحاجة إلى وجود «قانون للسلوك الحسن». وهو سلوك ينبغي أن يكون مؤسَّساً على أخلاق عالمية في الحد الأدنى، يتم تحديدها وتُفرض على الإمبراطوريات الإعلامية، سواء على سلوكهم في ما بينهم، أو في العلاقة مع الآخرين.

المرارة التي يفصح عنها مثقّفون غربيون حيال واقع الميديا في مجتمعاتهم، مردُّها إلى استشعارهم أن الحضارة الغربية تنحو بسرعة مذهلة نحو الاضمحلال الأخلاقي. حتى إن كثيرين منهم راحوا يصفون مستهلّ القرن الحادي والعشرين بأنه عودة متجدّدة لعصر فساد التاريخ وتدهوره، كما كان الأمر زمن انحطاط الرومان. وأنّ هذا التدهور الموسوم بهيمنة تقنية وعسكرية ساحقة، لا يحمل أي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للتاريخ وللحياة.

الوجه اللافت في النقد الغربي لـ«الميديا» يمكث في بُعده الأخلاقي والقيمي. وهذا جدير بالاعتناء والتقييم من جانب النخب العربية والإسلامية لما له من أثرٍ بيّن في التعرّف على طبائع النقاش الجاري اليوم في البيئات الثقافية الغربية. ومثل هذا النقد سوف يتخذ حيّزاً أكثر عمقاً في قيمته، حين يصوّب على ماهية الأخلاق. من النقاد من يشير إلى الطابع الفلسفي للسؤال، فيلاحظ أن ما يخصنا، هو ذاك الذي يتعلق بسؤال الخير والشر. وأيضاً بكلّ ما يستحقّ العناية على صعيد القيم مثل الحق والجميل، والشجاعة والشرف والتضحية بالنفس.. ولغياب الضوء الكاشف يعود كثيرون من علماء الاجتماع والأخلاق في الغرب إلى إعادة إحياء ما يعتبرونه المعيار الأوّلي للخير العام. وهو ما يوفره لهم مبدأ كانط الأخلاقي: «تصرّف كما لو أنك تستطيع أن تجعل من مبدأ فعِلِك قاعدة كونية».

وبعد...

كلنا يأمل ويرغب أن يتلقى خطاباً ينبئه بخبر سعيد، أو بمشهد يبتعث في داخله جمال العالم من حولـه، أو بحكمة تمنحه الأمان، وتنزع من ناظريه غشاوة القنوط والضجر والتشاؤم؛ إلّا أنّ ما قصدت إليه فتنة المشاهدة كما قرّرتها الحداثة الفائضة هو مضاعفة اللّامعنى في عالم بات اليوم أشدّ حاجة إلى استعادة مكانة الإنسان ومعناه.